

المنفعية

لحسين حسين النائي

المقدمة

لطاما ربط الناس وحتى بعض المتخصصين المنفعية بالانانية والبراغماتية أو حتى النرجسية. لكن الواقع يقول أن جميع الكائنات الحية هي كائنات منفعية بالفطرة، ولا يمكن للكائن الحي مهما حاول أن يصبح غير نفعي. وعندما أقول منفعية لا أقصد المنفعية المادية المباشرة، والتي يظن الناس أنها الشكل الأولي للمنفعية، متناسين الانواع الأخرى الكثيرة جدا للمنفعية، كالعاطفية والاجتماعية والضميرية والارضائية... الخ. وكل فعل يقوم به الكائن الحي يكون لا عتقاد هذا الكائن أنه سيقدم له منفعة من نوع ما. وقد يكتشف الكائن أن هذا الفعل اضره. لكن بلا شك أن لحظة القيام بالفعل كان يعتقد بفرصة للمنفعة. قد يسألني شخص ويقول أين المنفعية في الانتحار وابن هي في التضحية بسبيل شيء تحبه وتعزه وابن المنفعة في التبرع للمحتاجين او التكفل بالايتام وغيرها من الافعال التي تبدو للوهلة الاولى أنها غير نفعية. وأرد عليه بأنني سأجيب عن تلك التساؤلات في هذا المقال واسرح المنطق وراء هذه الافعال بشكل يمكنك أنت من إيجاد المنفعية بنفسك. وسوف نتناول المنفعية من عدة جوانب كالأخلاقية والاجتماعية والدينية وغيرها، في فضول هذا المقال والذي سيكون الإنسان به مربط الفرس ، لكن يمكن تطبيق ذات الخطوط العريضة على بقية الكائنات الحية.

المنفعية المادية

هي أشهر أنواع المنفعية، ومن أكثرها انتشاراً، وأسهلها ملاحظة. إذ أنها ببساطة، فعل يُفعل لأجل منفعة ظاهرة وواضحة كذهابك للعمل كل يوم او كصيد الاسد الغزال، ومثل صانع محتوى يقدم محتوى للشهرة او لارسال رسالة يريدها نشرها. ولأنها الاسهل ملاحظة يظن الناس أنها الشكل الوحيد للمنفعية وبهذا التعريف الذي يختزل المنفعية بشكل واحد، سوف ترى افعالاً مثل العمل لساعات اضافية دون اجر، ممارسة هواية لا تدر عليك ديناراً واحداً، أو شرب السجائر والكحول المضرتين، افعالاً غير نفعية وهذه رؤية خاطئة اختزالية بشكل مخل.

المنفعة والنسبية

المنفعة حالها حال كل ما حولنا نسبية، أي تختلف من شخص لآخر ومن فكر لفكر. فقد يرى شخص ما أن فعل فلان غير نفعي ومضر ، بينما يظن القائم بالفعل عكس هذا. وذلك لنسبية المنفعة بينهما. فما تراه غير مجد ، يراه غيرك كنز يجب حصده. فلكل جنس من الكائنات أنواع عديدة للمنفعة وكل فرد ترتيبه لهذه المنافع بحسب حياته وتجاربه وآرائه. وإذا اعتبرت المنفعة شيء مطلق وثابت، غدت عديد الأفعال عديمة الجدوى، ومضيعة للوقت ورمي للجهد بالشط.

المنفعة الاجتماعية والارضائية

وضعت هذين النوعين من المنافع بفصل واحد، لتشابكهما معا في عديد الحالات. ولنفهم جيداً لابد لنا من مثال، إذا قام شخص بعمل وليمة لأي سبب كانت نجد بعض الأشخاص يبالغون بالكرم والبذخ، بشكل يفوق قدرتهم المالية بشكل كبير. فقد تراه يفعل فعل غير منفعتي، أما الواقع فهو عكس هذا، فقد يكون سبب هذا هو لارضاء شعور داخلي لديه فتكون المنفعة من هذه المبالغة منفعة داخلية كرجل يسير بالليل وحده فيجد شخصا يتحرش بفتاة لا يعرفها فيهرع لنجاتها فأغلب الطعن ان فعله هذا ناتج عن منفعة ارضائية لشعور داخلي ، والمنافع الارضائية أحد أشهر المنافع البشرية وأكثر تعقيداً وتشابكاً. وقد يكون سبب الكرم هذا منفعة اجتماعية، فقد يكون كرمه هذا للظهور بمظهر الكريم أمام مجتمعه وهكذا حالات تكون مشهورة في البيئات التي تمتدح الكريم والعطاء مثل المجتمعات العربية. والأمثلة على هذين المنفعتين لا تعد ولا تحصى.

المنفعة والأخلاق

الأخلاق ظاهرة اجتماعية وبيئية مرتبطة ارتباط وثيق بالتاريخ البشري. وبالرغم من عدم ولادتنا بها، فالطفل لا يعلم أن الكذب سيء والسرقة ممنوعة، إلا من خلال مجتمعه وبيئته، إلا أنها باقية مع البشر وتتغير مع تغيرهم على مدار الأزمان. وأصل الأخلاق نفعي، فهي تستند على عدة أنواع من المنافع البشرية،

الأولى المنفعية الوقائية، فأنت لا تحب أن يُكذب عليك لما سيقع عليك من ضرر وجارك لا يحب أن يُكذب عليه كذلك، فينتج نوع من انواع التابوهات لمنع الضرر بالتبادل. وصحيح أن الكذب قد يحقق لك منفعة في أماكن وظروف معينة، لكن الكائنات الحية بطبعها ومنها الانسان تخشى الضرر أكثر من حبها للنفع، فتجنب الضرر منفعة لها مكانة عالية عند اغلب الكائنات الحية. غير انها بالتأكيد نسبية. فيختلف ترتيب أهميتها من جنس لجنس ومن فرد لآخر. والمنفعية الوقائية ليست الوحيدة التي تقف خلف الاخلاق البشرية ونشأتها وتغيرها، بل تقف خلف الاخلاق انواع عديدة من المنافع كالمنفعية العاطفية والمنفعية المادية التي تنتج اخلاق خاصة بها وغيرها الكثير. وفي بعض الاحيان، ترى جماعة تتمسك بخلق او اخلاق معينة تبدو مضررة للجماعة ذاتها او انها تقيدهم او تحرمهم من منافع كثيرة، لكنهم يلتزمون بها شديد الالتزام، ويربون اطفالهم على اتباع هذه الاخلاق، ويعاقبونهم بحرز اذا لم يلتزموا بها، ولهذه الحالة خفايا منفعية تبرز لنا أهمية ترتيب المنافع المختلف اختلف كبير باختلاف الناس. فقد يكون الالتزام لمنفعة عاطفية، إذ يرون ضرورة بالحفاظ على ما وصلهم من اجدادهم وآبائهم، كحافظنا على الآثار والفنون القديمة. فيحتفظون بها حتى وإن وجدت اضرار ومنافع مفقودة، إثر احتفاظهم بها. أو قد للخلق منفعة إجتماعية، إذ أنهم بالتزامهم بهذه الاخلاق يقوون روح الانتماء لهذه الجماعة، ويشعرون أنهم جزء من هذا القوم. ولكل خلقآلاف الانواع المنفعية للاحتفاظ به باختلاف الناس والمجتمعات.

المنفعية والأديان

للأديان والاعقادات حضورٌ في مختلف جوانب الحياة الإنسانية. وسوف نختصر الكلام عنها اليوم بجانب واحد، وهو الجانب المنفعي من الدين. استخدمت الأديان منفعية الإنسان خير استخدام، على مدار الازمان. ومن المنافع المستخدمة بكثرة في الأديان، هي الوقاية والمكافأة، فالأولى تعمل على منع المعتقد بالدين، من مخالفة الفروض والأوامر، كالتهديد بدخول الجحيم والعواقب الدنيوية وغيرها، والثانية، تغريه بالمكافآت كالجنة والتوفيق الالهي والرزق وغيرها. ومن المنافع التي احترفت الاديان استخدامها احسن احتراف، هي منفعة الامل، فالاديان تعطي لمعتنقها دفعات من الامل، يصعب على غير غير المتدين أو

المحدث الحصول عليها، ولهذا ولغيرها من الاسباب يتمسك الناس بها. وقد يكون للدين منافع اجتماعية، وبما ان الأديان هي افكار مُعممة على عدد كبير من الناس، تجد تغيير في المنافع المقدمة لكل شخص حسب ما يريد وما يتمنى، فتجد شخصان يؤديان ذات الطقس الديني ولهمما غرضان مختلفان تمام الاختلاف عن الآخر. وللنسبة دور كبير بالاديان.

المنفعة والإدمان

لكل عقلٍ من عقولنا سلم منافع، ترتيب يبدأ بأقل المنافع أهمية ويصعد إلى الأهم، وكلما زادت رتبة منفعة ما لدى الفرد، زاد اهتمامه بإشباعها. والإدمان يلعب على هذه الفكرة. ترفع المادة الادمانة ترتيب المنفعة التي تقدمها إلى مستويات عالية جداً، تجعل الفرد يُضحي بالكثير والكثير لأجله، كالضحية بصحته او ماله او مزاجه او تعريض نفسه للمخاطر القانونية فقط لاشباعها. فمدمن السجائر مثلاً، تكون المنفعة التي يقدمها له التدخين، وهي غالباً الراحة النفسية المصطنعة أو الاسترخاء والتنفس و غير ذلك، ذات ترتيب عالي في سلم المنافع، فيدخن وإن كان مدركاً لاضرارها. وكذا كل مدمن، كمدمن المشروبات الغازية والأكل غير الصحي الكثير، إذ أن ترتيب المنفعة المقدمة من هذه المشروبات والأكلات، وهي بالغالب طعمها اللذذ وسكرها الكثير، مرتفع، فيميل الفرد لاشباعها وإن ادرك أنها تضره. فمن افضل طرق العلاج من الادمان هو إعادة ترتيب المنافع طبيعته، قبل الادمان، ويتم هذا بطرق كثيرة، لن نطرق لها، لأنها خارج موضوع المقال. فحبداً لو يكون المدمن أو المعالج له مدرك لترتيب المنافع وكيفية عملها من فرد لفرد.

الخاتمة

لم أشأ ولم أرغب بكتابية كتابٍ ضخم، عن هذا الموضوع، رغم قدرتي على حشو المقال بكثير الحروف والامثلة ليغدو مؤلفاً ضخماً، والسبب الرئيس لهذا، أنني أرى المنفعة شيء بدبيهي يمكن لأي باحث عن الحقيقة واي ناظر بموضوعية دون تحيز أن يراها جليةً واضحةً، فقررت الاكتفاء بعدد محدود من الكلمات

والامثلة، وكتابة الخطوط العريضة بمقال قصير جدا يمكن قراءته بدقائق قليل، فيمكنك إذا فهمت هذا المقال أن تفهم المنفعة التي تدفع المترعرع للانتحاء، وفهم المنفعة في التبرعات والاعمال الانسانية والتضحية بسبيل الوطن وغيرها.

والسبب الذي يجعل رؤية المنفعة معقدة في الإنسان لبعض الناس، هو أن الإنسان وبصفته الكائن الاعلى بسلم التطور (إذا اعتبرنا التطور سلم لا شجرة بناءً قوة البقاء والتكييف والتغيير) يملك تعقیداً فكريأً واجتماعياً وعاطفياً أكبر بكثير من بقية الكائنات، فترى بعض افعاله على أنها غير منفعة، وأنه كائن مختلف عن بقية الأحياء، وفي هذا قصر نظرٍ غير واقعي.

تمت